(فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم)

تعالي القيم والمسؤوليات المشتركة

عبد الرحمن السالمي *

تقيم سورة الروم -التي ترد فيها آيةُ الفطرة- نظاماً محْكماً للاستدلال على الوجود والوحدانية- له ركنان: الأول داخلي أوِ ذاتي أوِ فطري، والثاني خارجي أو كوني أما في الذاتي فنرى آيتين في السورة تبدآن بـ(فأقِمْ وَجْهَكَ)، وهو تعبيرٌ مجازيٌّ عن استقامة الفكر ووضوح الهدف، مثل: (وَجَّهْتُ وَجْهِيَ)، وعندهما ينفتح العقل والقلبُ تلقائياً على أعماق الفطرة أو الخلْقة أو الروح ومقتضياتها جميعاً، وكلها تشخصُ إلى الوجود الإلهي والوحدانية الصمدية، وبحسب هذا النهج فإن الأمر محتاجٌ للجهاد الداخلي أو بذلِ الجهد، كما جاء في آخر سورة العنكبوت السابقة على سورة الروم: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا). أما الركنُ الثاني أو النهج الثاني لهذا النظام أو الانتظام -والذي سميتُه خارجياً وهو ليس كذلك في الحقيقة- فيبدأ بالدعوة للسير في الأرض: (قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا) [الروم: ٤٢] أو (فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) [الروم: ٥٠] أو (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا) [الروم: 9]، وتأتي الآية الكريمة في سورة فصلت لتجمع بين المنهجين: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) [فصلت: ٥٣]، أمَّا نهج الفطرة أو النور كما في آية النور؛ فإنه يضيء حنايا النفس والروح بالوجود الإلهي؛ في حين يفيد التأمل في الكون والخلق من طريق النظر العقلي - إضافة للإيمان بالخالق من هذه الطريق- عملاً أخلاقياً وعملياً، ويعني ذلك بالدرجة الأولى إدراكاً لهذا النظام الذي أقامه الخالق، وبالدرجة الثانية جهداً وعملاً للانتظام فيه.

هل هذان النهجان: الفطري والكوني، أو نهج النظر في داخل النفس، ونهج النظر في الكون، هل هذان نهجان متكاملان، يريدُ الخطابُ القرآني من البشر اعتمادهما معاً بحسب أصنافهم، وما هو الأقرب والأولى بكل فئة؟ أم أنّ منهج الفطرة معطىً متوافر لدى سائر البشر (غريزة أو نورًا)؛ في حين يُدعى البشرُ لتعلُّم المنهج الثاني: منهج النظر، من أجل إدراك النظام الإلهي للكون بالعقل، والتصرف على أساس منه؟

وأيًّا يكن الأمر فإن للنهج الفطري -بالإضافة إلى اليقين الإيماني- أثرين مباشرين: الطمأنينة الداخلية، والتوجه الأخلاقي أو الانتظام الأخلاقي النظري في الحكم على الظواهر والأشخاص. أما نهجُ النظر الكوني فإنه معنيٌّ بالأخلاق العملية أو السلوكية، ويدعو للانتظام الاجتماعي والإنساني. فالفطرةُ إيمانٌ ورؤيةٌ أخلاقية لعالم الإنسان،

والنظر العقلي/الكوني عمل بحسب الرؤية الفطرية الكبيرة؛ ولذا فقد استقرَّ الرأيُ لدى علماء الدين في الأزمنة المعاصرة على أنّ مفهوم الدين يتضمن بالضرورة العناصر التالية: الذات العليا أو الفكرة العليا، والنظام الأخلاقي، والشعائر العبادية، والمؤسسة الدينية. وتتفاوتُ تعريفاتُ وتأثيراتُ هذه العناصر من دين لآخر؛ لكنها لا تختفي في أي دين. ولأننا معنيون في هذا العدد من مجلة التسامح بالقيم وتعاليها بالمعنى الذي قصدهُ الغربيون من وراء ذلك؛ فينبغي أن نقرر هنا أن القرون الثلاثة الأخيرة في أوروبا والعالم أحدثت متغيرات كبيرة فيما يتعلق بالقيم الأخلاقية من ظهور منظومات أخلاقية علمانية أو ذات أصول غير دينية -وهي محايدة أو مُعادية للدين- ودخول الديانات والتقاليد الأسيوية على خط النظر الأخلاقي والدعوة الأخلاقية المختلفة عن الديانات الإبراهيمية، وظهور نزعات شوفينية ومركزية بالغرب تمزج بين الديني والقومي والعنصري إبان سيطرة الغربيين على العالم، أو محاولتهم ذلك انطلاقاً من القوة المادية حيناً، ومن دعاوي الرسالة الحضارية حيناً آخر. ومنذ دراسة دي توكفيل عن عناصر نهوض الدولة والديمقراطية في الولايات المتحدة الأمريكية وحتى ماركس فيبر -في دراسته عن الأخلاق البروتستنتية وظهور الرأسمالية العالمية- كان للقيم دائماً صاحبة الاهتمام الأول لدى مفكري وفلاسفة أوروبا، وظلت هذه المناقشات في تواصل لا ينقطع.

وإذا كان النزوع التغريبي أمراً مستنكراً وسلبياً؛ فإن النزوعين الآخرين: الأسيوي والعلماني - والذين اكتسبا نفوذاً كبيراً في القرن العشرين- يستحقان النظر من جانب أهل الديانات التوحيدية، فعلى أساسٍ من النزوع العلماني ظهرت مقولة الحقّ الطبيعي للإنسان، وصيغت من خلال فلسفاتها مواثيق الأمم المتحدة والإعلان العالمي لحقوق الإنسان ولواحقه، أما ديانات وأخلاقيات الأسيويين فإنه نُسبَ إليها صنع نجاح اقتصادي كبير، فبرز في مواجهة أو منافسة العالم الغربي الأمريكي والأوروبي والروسي. ولا علاقة بالطبع بين المنظومتين العلمانية والأسيوية، لكنّ العلمانيين والبروتستانت تأثروا بالنجاح الاقتصادي الأسيوي (الياباني والصيني والهندي)، وذهب كثيرٌ منهم يثني على أخلاق الانضباط والثقة التي يرون أنها أسهمت في النهوض الأسيوي الكبير.

وعندما نذكر هذه الأمور كلها يكون علينا أن نأخذ في الاعتبار مرحلتين اثنتين مر بهما النقاش في العقود الأربعة الأخيرة، فقد بدأت في الستينات من القرن الماضي، في المجمع الفاتيكاني الثاني (1962-1965) موجةٌ للحوار والاعتراف بالإسلام، وشاعت على أساسٍ من ذلك مقولة الحوار الإسلامي/المسيحي. وكان لتلك الموجة ثلاثة تيارات: تيار مراجعة الماضي ونقد أُطروحات المواجهة، وتيار رفع أطروحة الديانات الإبراهيمية والمشتركات بينها، وأهمُّ المشتركات: الوحدانية، والقيم الأخلاقية، وتيار محاورة المسلمين بشأن المشكلات المعاصرة، وكيف يمكن تحويل المشتركات الاعتقادية والأخلاقية إلى شراكةٍ تؤثر في حاضر العالم ومستقبله. كما أنّ الفوز على العالم الشيوعي أحدث نزعة انتصارية في الأوساط البروتستانتية والكاثوليكية المتشددة، فانتشرت مقولة (صراع الحضارات) التي استهدف بها الإسلام، كما كانت هناك عودةٌ للإنكار والتجاهُل ظهرت في مقولة

الحضارة اليهودية/المسيحية، وهذا بالإضافة إلى التوتر تجاه المسلمين في المجتمعات الغربية وبخاصة في البلدان الأوروبية الكاثوليكية كلّ هذا أضفى طابع الصراع الحضاري من خلال الدين. والذي يبدو الآن أنّ الاتِّجاهات الفكرية الرئيسة في الغرب تُحاول تجاوز المرحلة الانتصارية؛ لكن بعد الحرب الباردة تبعت المقولة السابقة نظريةٌ أُخرى، والتي تعد في نظر كثير من المفكرين مهمة وهي (نهاية التاريخ)، التي جعلت البشرية في صعيد واحد في مواجهة مع القيم الغربية، إما بالاستسلام لها، أو الاتِّجاه للتواصُل الحضاري والنهوض والذي يتأسس على قيم الديمقراطية، والإنسانوية، والعقلانية المادية. ويصبُّ ذلك لصالح العودة للبناء على المقولة الإبراهيمية بضرورة الإفادة من القيم الأخلاقية الكبرى في الأديان في إعادة بناء عالم اليوم. فحتى العلمانيون يتجهون للاعتراف بأخلاقيات الأديان وضرورة الإفادة منها، في حين يجري تبادل أطروحات الحوار والكلمة السواء بين أهل الديانات الإبراهيمية، كما يجري الانفتاح على الديانات الأسيوية، وهذا كلهُ يسيرُ في خط القول بأخلاقياتٍ أو قيمٍ أخلاقيةٍ عالمية يتلاقى من حولها أهل الأديان وغيرهم بمقتضى الاقتناع والمصالح المشتركة والمسؤوليات المشتركة. فالقيمُ الكبرى في عالم اليوم (مثل العقل والعدل والأخلاق) تتعالى على المحليات والخصوصيات، كما تتعالى عن نزعات التفوق والتربص الماضية، بحيث تقع مقولة (الكلمة السواء) في قلب المشهد كله.

فلا شك أن القيم الأخلاقية في الأديان تتوجه بالإرشاد إلى بني البشر دون تفرقة، ودعوى عدم التفرقة والتمييز تسود أيضا في المنظومات العلمانية الأوروبية في الأساس، أما الديانات الأسيوية فإنها ترمي للإصلاح الفردي والروحانية الفردية، والسمو بالإنسان إلى آفاق خلاصية، وإذا نظرنا إلى الأصقاع التي ينتشر فيها بنو الإنسان على هذه الأرض نجد أن كثرةً كاثرةً منهم تتبع هذا الدين أو ذاك، ولا تقبل التخلي عنه. وحتى وقت قريب كان غير المتدينين هم أصحاب النصوص والقدرات التي تؤثر في حياة البشر ومصائرهم؛ لكن مع عودة الأديان للتأثير على المجال العام ظهرت -كما سبق القول- الرؤية العالمية للأخلاق، وللديانات الإبراهيمية بالذات إسهام كبيرٌ فيها.

وهكذا فإن لدينا الآن عودةً للأخلاق المؤسَّسة على الدين، لا تنكر وجود المنظومات الأخلاقية المدنية، وإنما تهدف للمشاركة والإمداد والتعديل وإعطاء روح جديد للمقولات الأخلاقية الدينية على مدى القرن الواحد والعشرين. والمشاركة التي يطالب بها أهل الأديان في عوالم القيم تعني أنهم مستعدون لتحمُّل المسؤولية، بحيث تدخل الشراكات في حيز التنفيذ، وفي هذا المجال وقبل الختام أود التعليق على ما ذكره المؤرخون من أنّ تشينغ زينج هي (1371-1433) استطاع الوصول إلى غرب أفريقيا مروراً برأس الرجاء الصالح قبل دوران فاسكودي جاما عام 1498م. بيد أن تشينغ أغلق الباب على نفسه حين أعلن أنه لا يوجد في العالم آنذاك منافس لعظمة الصين، بينما فاسكوديجاما كان يحمل رسالة القيم الأوروبية المعاصرة وبداية النهوض الأوروبي؛ ففرض التفوق والانغلاق يتطلب الإرغام والقوة، وهذا لا يمكن أن يستمرّ. فكما لم تستطع الصين الاستقرار في

المحيط الهندي في القرن الرابع عشر؛ لأنّها أرادت التفرد. فكذلك لم يستطع البرتغال ذلك فيما بعد، وحتّى اليوم.

لقد اخترنا موضوع القيم في الصيغة الجديدة التي فكرنا فيها لأكثر من عام، والمأمول أن تكون الإسهامات الوافرة من جانب الأساتذة والزملاء قد أدت الغرض، من حيث الكشف عن أهمية هذا الملف في عالمي اليوم والغد.